الصورة الشعرية في القصيدة العربية المعاصرة

أ/ بغاديد عبد القادر

قسم اللغة العربية وآدابها جامعة السانيا– وهران–

الملخص

تمثل الصورة الشعرية إحدى أهم الركائز الأساسية التي يقوم عليها العمل الأدبي بشكل عام والنص الشعري بشكل خاص، وقد عرفت اهتماما واسعا لدى النقاد قديما وحديثا واختلفت التعريفات والنظيرات بشأنها كما تنوعت أساليب استخدامها في القصيدة العربية المعاصرة.

وإذا كان البناء الفني لمعمار القصيدة الحديثة يعتمد على استحضار النصوص التراثية والأساطير القديمة، فإنّ الصورة الشعرية بمختلف أنماطها كانت ولا تزال واحدة من أهم مكونات القصيدة العربية المعاصرة ، وقد حاولنا في هذا المقال رصد أنماط الصور الشعرية وعلاقتها بالحواس الإنسانية انطلاقا من رؤى نقدية قديمة وحديثة ووقفنا عند أهم الصور الحسية التي اعتمدها الشاعر المعاصر في نصوصه الشعرية وطرق استلهامها وتحويلها إلى صور تعبيرية تعكس واقع الإنسان العربي وتعبر عن قضاياه الإنسانية والسياسية والاجتماعية.

تمثل الصورة الشعرية إحدى أهم الركائز الأساسية التي يقوم عليها العمل الشعري، لذا فقد عُنّيت باهتمام واسع الأفق في الحقل النقدي الحديث لكونها ليست مجرد تعبير عن إحساس ـ أو عاطفة ـ يقدمه الشاعر في عمله، بل هي تُعبر عن حقائق وصور آنية من واقع الإنسان يرسمها الشاعر بحواسه ويعبر عنها بعاطفته المشحونة بجملة من الأحاسيس المتنوعة.

وإذا كان البناء الفني للقصيدة المعاصرة يُعنى بدراسة مكونات هذا البناء« فإنّ الصورة الشعرية تُعد واحدة من المكونات الأساسية لبناء القصيدة.»[1]

لقد عرف الإنسان القديم الصورة ورسمها في كهفه، ثم تطورت علاقته بها مع تطور وسائل التعبير وانبثقت في الشعر لتترجم صلة الإنسان القديم بها وقد حفلت أشعار الإغريق والرومان والعرب بها حيث نالت الصورة الشعرية عناية القدماء والمحدثين على حد السواء.

1-الصورة الشعرية عند القدماء: يُعد الجاحظ (ت. 255هـ) أول من تحدث عن الصورة الشعرية فقال:« الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير.»[2]

أما قدامة بن جعفر(ت. 337هـ) فقد تبع الجاحظ في رأيه حين قال:« إذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة كما يوجد في كل صناعة من أنه لا بد فيها.»[3]

وعلى هذا الأساس يدعوا الشيخان (الجاحظ وقدامة) إلى الاعتماد على التصوير والصناعة لبيان مدى جودة ورداءة العمل الأدبي.

أما أبو هلال العسكري (ت. 395هـ) فذكر الصورة الشعرية في أثناء حديثه عن التشبيه بقوله:«إنّ التشبيه في جميع الكلام يجري على وجوه: تشبيه الشيء بالشيء صورة ومنها تشبيهه بها لونا وصورة.»[4]

ويقول الجرجاني(ت. 471هـ) أيضا عن الصورة الشعرية« الصورة إنما هي تمثيل وقياس لما نعلمه لعقولنا على الذي نراه بأبصارنا.»[5] وينفرد حازم القرطاجني(ت. 684هـ) بتعريف مغاير لما سبق ذكره حيث يقول: « مجهول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها بالأذهان.»[6]كما يرى الشريف الجرجاني(ت. 816هـ): « أنّ صورة الشيء ما به يحصل الشيء بالعقل.»[7]

2-الصورة الشعرية عند المحدثين:

أخذت الصورة الشعرية عند المحدثين اهتماما لا يقل عن اهتمام القدامى، وعلى الرغم من كثرة وتعدد الدراسات فإنّ حقيقة الصورة الشعرية ما زالت موضع التجاذب والاختلاف، وهي تكاد تكون أقرب إلى الغموض

منها إلى الوضوح، ويرى الدكتور شوقي ضيف أنّ من أهم مميزات الشعر مادته التصويرية فالشعر لا يُعبر عن الحقائق بل يعرضها على شكل رموز وأطياف هلامية لأنها تؤثر فنيا أكثر من تأثير الحقائق نفسها.[8]

ومن هنا كانت الصورة الشعرية غير واقعية وإن كانت منتزعة من الواقع « لأن الصورة الفنية تركيبة وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع.»[9]

أما أحمد الشايب فالصورة الفنية عنده هي: « قدرة على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة.»[10] فالصورة ما هي إلا علاقة الشيء و دلالته الصورية في حالة الوعي، وقد تتوسع لتستعمل عادة للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي ويقال أيضا بأنها طريقة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة.

و من هنا تعد الصورة في القصيدة العربية المعاصرة معلما بارزا من معالم النص الشعري الحداثي لأنها تعبير عن علاقة الذات الشاعرة بالخارج.

3- أنماط الصورة الشعرية: من أبرز محاولات النقاد في تحديد أنماط الصورة الشعرية محاولة الدكتور جابر عصفور حيث ذكر بأنّ هناك أنماطا متعددة من الصور في الشعر منها النمط البصري، والسمعي، والذوقي، و اللمسي، والحركي، وهي أنماط نابعة من كونها لها دور كبير و فعال في الاستقبال والبث وأيضا في تعميق رؤية الإنسان للأشياء من حوله، لذا فقد لجأ إليها الأدباء بصورة عامة والشعراء بصورة خاصة في تعميق أحاسيسهم بالأشياء من حولهم بوصفها النافذة الذهبية الأكثر تعبيرا عن واقعهم وخيالهم ومشاعرهم.

أ- الصورة البصرية: لا يخفى على دارس الصورة ما لحاسة البصر من قيمة عظمى في مجال الأدب لما لها من معرفة جمالية، ولابد للشاعر أن يتمتع بوعي حاد ورؤية خاصة للأشياء، فالشاعر لا يرى الأشياء كما يراها عامة الناس.

ولابن طباطبا العلوي رأي في الحاسة البصرية يقول فيه:« العين تألف المرأى الحسن وتقذى المرأى القبيح الكريه.»[11]

وعليه يختلط تشكيل العينات، أي الأشياء المرئية بالعين لتشكل الصفات الأساسية وهذه الصفات متنوعة يتفرق إدراكها بين الحواس جميعها، ومن هنا قد ترتبط المرئيات في الصورة الشعرية بصفات أخرى هي في أصلها صفات لمسموعات أو مشمومات أو ملموسات.

إنّ الصورة البصرية هي نتاج تتعاون فيه كل الحواس وكل الملكات وإنّها بمثابة الإلهام يأتي نتيجة قراءات الشّاعر وتأمله في الأشياء وسعة خياله وعمق تفكيره. ومن أمثلة ذلك يقول موفق محمد:

« بعد أن ملّ الانتظار

و رأى أمي رمادا في صرة

نفض الجدار عن ذراعيه

وتوكأ على عصاه

و مضى يبحث عني

بأن بنظارتين تشتعلان أسى

في الطرقات

من أجل من ؟

خرج حبيبي ولم يعد.» [12]

تعددت الصور في هذا المقطع فالشاعر يتحدث عن الأم التي فارقت ولدها وقد طال انتظارها له حتى إنّ الباب قد حزن على حالها وكبُر وهرم وتوكأ على عصاه بنظارتين حزينتين، وهنا نلحظ صورة تشبيهية على حزنه الشديد على هذه الأم الحنون، وقد لعبت الصورة البصرية دورا كبيرا فيها لتصوير المعنى الذي أراده الشاعر برؤية جوهرية حقيقية اعتمدها في بيان وتوضيح المعنى المراد للمتلقي. وفي موضوع آخر يقول صلاح حسن السيلاوي:

« رأى الغبار يمنع أثرها

كلما نفض النسيان عن ابتسامته

سمع نحيبا

ورأى قبورا تتضاحك في المقابر

كلما استنشق المدينة

يذكر رائحة الكتب المهملة.»[13]

الصورة البصرية في هذا المقطع صورة إيهامية، لأنها لم تعد رؤية بصرية كما يسقط عليها البصر أول مرة، فالغبار الذي يراه المتمدن لم يعد هو الغبار بل هو تراكم الماضي ومعه تراكم الهموم على الإنسان العربي الذي يحمل تركة الماضي وترسباته من تخلف وهناك صورة بصرية إيهامية أخرى تُرى فيها قبور تتضاحك في المقاهي وهذا تجسيد واقعي لعذابات المجتمع المتعب بهموم الحياة.

ب–الصورة السمعية: أخذت حاسة السمع اهتماما واسعا من لدن النقاد سواء القدامى منهم أو المحدثين وأقدمها رأي الجاحظ حيث يقول:« لا يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظة معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسمع من معناه إلى قلبك.»[14]ويقال أيضا:« الأذن تتشوق للصوت الخفيف الساكن وتتأذى بالجهر الهائل.»[15]

وعلى هذا الأساس كان السمع حاكما في نقد الصوت اللفظي وفي تشويق الأذن للكلام الخفيف الرائع، ولا يخفى علينا ما للحاسة من أهمية في إدراك الجمال وتذوقه، فهي عماد كل نمو عقلي وأساس الحاسة الذهنية، ومن أمثلة الصور السمعية قول الشاعر:

« ليلا

أسمع في أرجاء العالم موسيقى

لا يعرف بهجتها

إلا من أنصت في الصمت إليها

موسيقى تأتي من أصوات شتى

صر صار يصدح من مكمنه

صوت خفيف ناه

و خليط من أصوات شتى

تتمازج صادحة، تمسك قلبي أحيانا

لحظات أو ساعات

حتى اسقط في بئر الرؤيا.»

إنّ الإحساس حين يتوطن الصورة يجعلها قادرة على جذب الإدراك ويمنحها استقلالية وجمالية وحماية تتمثل بشكلها ولونها وإيحاءاتها، فالصورة السمعية في المقطع الشعري السابق سيطرت عليها رؤيا الشاعر وتداخلت في كل حركات القصيدة. فالرؤيا هنا تحولت من ذاتية الشاعر إلى خليط لأصوات عدة من مصادر متفرقة أثرت في شعوره الداخلي حتى أسقطته في عمق الرؤيا في ليل صامت.

ج-الصورة الذوقية: المقصود بها الخيال الذوقي الذي يستعمله الشاعر في قصيدته ليبعث فيها الجمالية الشعرية، وللقدماء أراء في حاسة الذوق فهذا بن الأثير يقول عنها: «ومن له أدنى بصيرة يعلم أن للألفاظ في الأذن نغمة لذيذة كنغمة أوتار وصوت منكر كصوت حمار، وأنّ لها في النغم أيضا حلاوة كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم.»[16]

كم نجد كلمة الذوق تتردد كثيرا على ألسنة النقاد في أحكامهم النقدية كالحلاوة، والمرارة، والعذوبة، وهي مؤهلات تُحدث مشاعر حسية خاصة عند المتلقي وتداعب خاليه ليتذوق الطعم المرسوم في لوحة البيت الشعري ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

« للشمس في شفتيك سر

يقف الزمان ويستمر

وتسر للصحراء غيمك

ثم تنفض ما تسر

ما أنت يا مولايا طعم

حضارة حلو و مر.»

بدأ الشاعر صورته الحسية بلغة يومية بسيطة لكنها فنية في بناءها موحية في طريقة عرضها، فالشاعر يتحدث مع ضمير الغائب والذي يمثله الشاعر (أبو الطيب المتنبي) مادحا إياه بوصفه الفجر الذي يضيء الظلمة العتمة وطعم الحضارة بحلوها ومرها، فالمتنبي في ضمير الشاعر هو الأنا المثالية ورمز للخلود.

د–الصورة اللمسيَّة: للصورة اللمسيّة أهمية كبيرة بين الحواس لا تقل أهمية عن أي حاسة أخرى من الحواس الإنسانية، وقد تحدث قديما عنها الجاحظ فقال: « صغر الكف وخشونتها عندما عاب الشاعر فضالة بن الشريك كف عبد الله بن مطيع العدوي حين وجدها غليظة جافة فقال:

دعا ابن مطيع للبياع فجنته إلى بيعة قلبي لها غير ألفٍ

فناولني خشناء لما لمستها بكفي ليت من أكفِّ الخلائق[17]

و يقال أيضا: « اليد تنعم بالملمس اللين الناعم وتتأذى بالخشن المأذي.»[18]

وعلى هذا الأساس فالصورة اللمسية إما أن تكون وفيرة صافية أو مختبئة غائمة، لكن دور النظر المتأني أن ينقيها مما يشوبها من مداخلات الحوا ل الأخرى ولحاسة السمع أيضا حضور واسع في إدراك الجمال لأنها تؤدي دورا لمسيا في بناء المشهد الشعري ومن أمثلتها قول الشاعر:

« هم رجال يشنقون أنفسهم

حزنا في المساء

وبعدها يمررون الماء

بين أطرافك الملساء

ويعيدوك في ظلام الليل

في متاهات المساء.»

يُعبِّر الشاعر في هذا المقطع عن معاناة أناس يشنقون أنفسهم حزنا في أصعب وقت ممكن أن يمر على إنسان يائس من الحياة.

هـ-الصورة الشَّمية: وهي الصورة التي تبعث في أنفس الخيال رائحة فتومئ شعرا والشاعر يستعملها لأنه يبحث عن إيقاع الانفعال في نفس المتلقي بعد أن أوقعها بنفسه، في حين يسعى المتلقي إلى توسيع ذلك الانفعال والاكتفاء بإبداء الدهشة دون ردها إلى سبب معين ومن أمثلة ذلك قول الشاعر:

« نغيب المسافات

لكنه... كان يمضي

لرحلته في الهموم

يبدد أسراره ثم يأتي عزيزا

كأي بلاد حبيبة

فيوقظ رائحة الأهل

والنخل

والمعجزات القريبة

والصباحات يسجن في وجهه كالحمام

والنبوءات

يتزين من صمته ... الكلام

وظنٌ غارق بالجلال

وطن من جلال.»

الشاعر في هذا المقطع يحرك خياله ويصور تبدد الأسرار في جو مليء بالهموم، والرحيل حل أوحد للتخلص من هذه الهموم، ثم يعود بكل حنان وعطف يشبه البلاد الحبيبة التي يعود ليستقبله أهلها المليئين بالحنان والعز والشموخ.

تعد هذه الصورة إطارا رمزيا للتعبير عن مشاعر الحنين للوطن ونلحظ أن الشاعر استعمل البياض كلون بكثرة ليجعل من المتلقي شريكا في قراءة النص وتأويله وتعميق دلالته وبالتالي فالصورة في هذا المقام توزعت بين مهمات ثلاث هي الكشف والخلق والجمالية.[19]

خاتمة:

لـد وظف شعراء القصيدة العربية المعاصرة الصورة الحسية وجعلوا منها ساحة مفتوحة ليعبروا بها عن علاقتهم بالإنسان العربي وهمومه الآنية، فالصورة الشعرية من أهم العناصر الضرورية في تشكيل معمار القصيدة بوصفها عنصرا أساسيا في كل عمل شعري، فقد انعكست التعابير الحسية على التعابير اللمسية وبالتالي ارتبطت الصورة الشعرية بالصور والأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية للإنسان بصفة عامة وللمواطن العربي بالخصوص في جانبها الفكري والمعنوي لتعبر عن واقعه المتأزم في أدق تفاصيله الحياتية.

قائمة المصادر والمراجع:

1-إبن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق طه حجازي، محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م.

2-أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.

3-أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م.

4-أبو بكر عبد القاهر بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد محمود شاكر، مطبعة المدني ، مصر و دار المدني، جدة، ط3، 1992م.

5-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1938م.

6-أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج.10

7-أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ط1994،1م.

8-السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد الجرجاني، التعريفات،تحقيق محمد باسل عين السود، دار الكتب العلمية، لبنان،ط3،

9-شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، ط6، 1976م.

10-صلاح حسن السيلاوي، هكذا أعلق جنائني، مطبعة فضولي، العراق،ط2007،1م.

11-ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب ماعر، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة،دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، (د ط)،(د ت).

12عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية والمعنوية، دار الفكر العربي، ط3، 1981م.

13-قدامة بن جعفر البغدادي، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ب ط)، (ب ت).

14-مرشد الزبيدي،بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر،درا الشؤون الثقافية العامة،بغداد 1954م،(ب ط).1

15-موفق محمد، ديوان غزل حلي، منشورات الاتحاد العام للأدباء و الكُتاب في العراق.

16-نعيم اليافي، أوهاج الحداثة، دراسة في القصيدة العربية الحديثة، منشورات اتحاد الكت

(1) مرشد الزبيدي، بناء القصيدة الفني في النقد الأدبي القديم والمعاصر،دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1954م، ص: 45.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ط3، 1938م، ص: 123.

(3) قدامة بن جعفر البغدادي، نقد الشعر، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ب ط)، (ب ت) ص:65.

(4) أبو هلال الحسن عبد الله العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا ، ابنان، ط1، 2006م ، ص: 218و219.

(5) أبو بكر عبد القاهر بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز ، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، دار المدني، جدة، ط1992،3م، ص:508.

(6) أبو الحسن حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1986م، ص: 120.

(7) السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد علي الجرجاني، التعريفات،تحقيق: محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط3، 2009م، ص:139.

(8) يراجع: شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر،ط6، 1976م، ص: 229.

(9) يراجع: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية والمعنوية،دار الفكر العربي ، ط3 ، ص: 217.

(10) يراجع: أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ط1، 1994م، ص: 205.

(11) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تحقيق: طه حجازي، محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م،ص:14.

(12) ينظر: موفق محمد، غزل حلي، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، ص: 30.

(13) ينظر: صلاح حسن السيلاوي، هكذا أعلق جنائني، مطبعة فضولي، ط1، 2007م، ص:30

(14) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ، مصر ، مكتبة المتنبي، بغداد،(ب ط)، (ب ت) ص:115.

(15) يراجع: ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، مرجع سابق، ص: 14.

(16) ضياء الدّين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج1، تحقيق احمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، (ب ط)، ص: 171.

(17) ينظر: أبو فرج الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص: 164.

(18) ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، مرجع سابق، ص: 14.

(19) ينظر: نعيم اليافي، أوهاج الحداثة، دراسة في القصيدة العربية الحديثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1993م ص 204.